جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم الفلسفة الإسلامية
الدراسات العليا

رسالة علمية مقدمة لنيل درجة التخصص "الماجستير" في الفلسفة الإسلامية

بعنوان

الآراء الصوفية للإمام الشعراني
مع تحقيق كتابه
" القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية "

إعداد الباحث
أسامة فخري فكري محمد محمود الجندي

إشراف :
فضيلة الأستاذ الدكتور
عبد الفتاح أحمد الفاوي
أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

1429هـ - 2008م

إهـــــداء

- **إلى:** الحبيب المصطفى، والنبي المجتبى – صلى الله عليه وسلم –، وآل بيته الكرام، وصحابته الأعلام – رضى الله عنهم أجمعين –.
- **إلى:** والدى الذي أحسن في تربيتي ، وأكرم عنايتي ، فلقد كان محبًا للعلم، حفزنى لطلبه، وأعاننى على تحصيله ، أول من وجهنى إلى الأزهر والدعوة إلى الله تعالى، أبقاه الله سبحانه بخير وزاده خيرًا وبَلَّغَهُ الخير.
- **إلى:** والدتى، التى ملأت نفسى حبًا وأملاً، فلم تنقطع يومًا عن الدعاء، ولم أيأس أبدًا من قبول الله تعالى لدعائها، أبقاها الله لى بصحة وسلامة.
- **إلى:** زوجتى، لمسة الوفاء، وهمسة الأمل، لها منى كل الامتنان، فطالما رأيت منها كل المودة.
- **إلى:** ابناي (محمد و أحمد) فرحة قلبى، وسرور نفسى. أسأل الله – عز وجل – أن يكونا من الصالحين.
- **إلى:** جميع أحبتى من: أخٍ وأختٍ وقريبٍ وصديقٍ.
- **إلى:** كل من عاوننى وساندنى.
- **إلى كل هؤلاء أهدى هذا العمل.**

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله

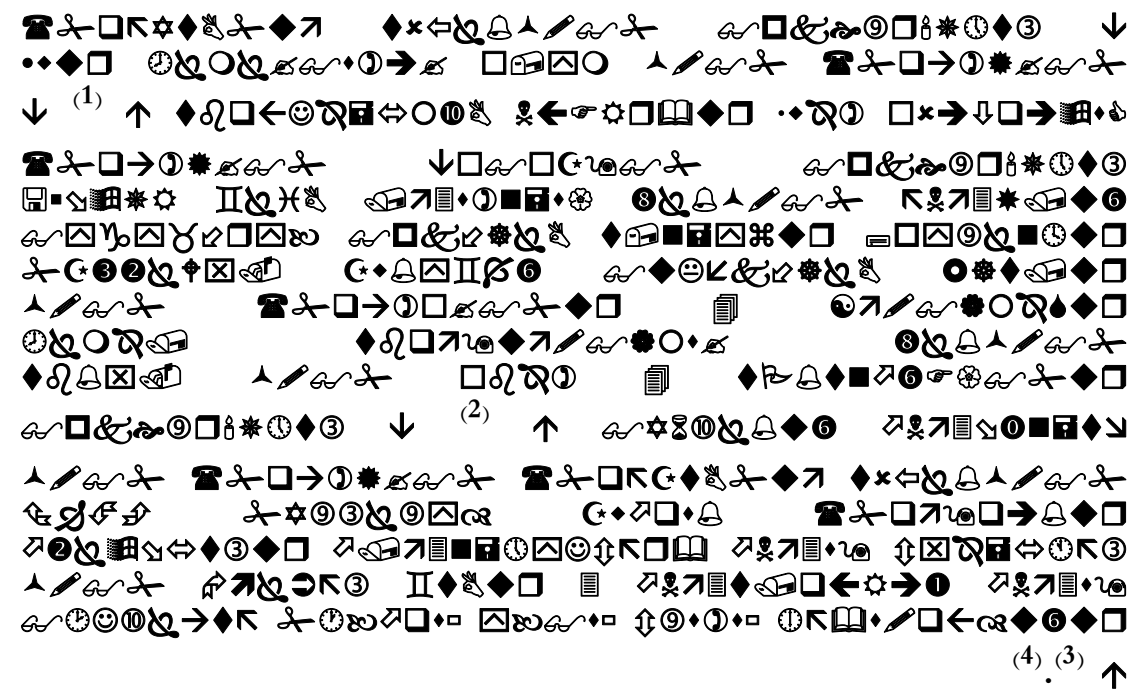

[1] .

وبعد ....

فإن التصوفَ يحتل بين فروع المعرفة الإسلامية مكانَةً سامية ، فهو خلاصةُ الحكمة في الآداب الإسلامية ، وخلاصةُ النور في الفضائل المحمدية ، وهو جماعُ الدراسات النفسية

([1])سورة آل عمران الآية (**102**) .

([2])سورة النساء الآية (**1**) .

([3])سورة الأحزاب الآيتان (**71**، **72**) .

([4])هذه خطبة الحاجة التي داوم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أخرجها من حديث ابن مسعود الإمام أحمد في مسنده (**432/1**)، واللفظ له، وأبو داود . ك/ النكاح. باب/ فى خطبة النكاح ح (**2118**) (**238/1**)، الترمذى. ك/ النكاح. باب/ جاء فى خطبة النكاح (**1105**) (**268/3**)، النسائى. ك/ النكاح. باب/ ما يستحب عند النكاح ح (**3277**) (**89/6**)، ابن ماجه. ك/ النكاح. باب/ خطبة النكاح ح (**1892**) (**609/1**)، والدارمى. ك/ النكاح. باب/ فى خطبة النكاح ح (**2202**) (**191/2**)..

والقلبية في الفكر الإسلامي ، وهو المساهمُ الأكبر في تجلية المعاني القرآنية والأحاديث النبوية ، والتصوف بذاته ثمرةٌ كبرى في المعارف الإسلامية [5] .

ولقد اهتم بدراسة علم التصوف الكثير من الأعلام في مختلف العصور ، ومن هذه الشخصيات التي تقابلنا في تاريخ التصوف الإسلامي ، الصوفي عبد الوهاب الشعراني ، ذلك الرجل الذي جذبه رحيقُ التصوف منذ حداثته ، وتعلق في سنواته المبكرة بالتصوف والزهد , فبكر الشعراني بسلوك الطريق الصوفي في بدء حياته بحكم النشأة في بيت قوامه الذكر والزهد والورع ، وفي بيئة يغلب عليها الطابعُ الصوفي ، وكان لأسرته أكبر الأثر في هذه النزعة الصوفية التي صاحبته منذ حداثته ؛ حيث كانت أسرتُه عريقةً في الصلاح والتقوى .

والشعراني هو عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن موسى الشعراني . ويصل نسبه إلى محمد ابن الحنفية بن علي بن أبى طالب رضي الله عنه . وهو الشيخ العالم الزاهد ، الفقيه والمحدِّث والأصولي ، المصري الشافعي الصوفي .

وقد اتصل الشعراني في طلبه للعلم بصفوة العلماء في عصره من مثل : زكريا الأنصاري ، وناصر الدين اللقاني ، والسمنودي ، والقسطلاني ، وغيرهم ، وقد عرف منذ نشأته العلمية باحترامه لشيوخه ومدى إجلاله لهم من خلال تواضعه الجم ، وأدبه الحسن ، وأيضاً من خلال نفس تتسع لشتى جوانب العلم والمعرفة ، فقد درس الشعراني التصوفَ ، والفقه ، والحديث ، والتفسير ، واللغة ، والأصول . وكل ذلك أدى إلى اتساع مداركه العقلية لكل معارف عصره العلمية ، غير أن اهتمامَه الأول واشتغالَه الواسع كانا في الحديث وفي التصوف .

وقد ظفر الشعراني بإجازة كثير من الشيوخ الذين كانوا في عصره , واعترفوا له بالفضل والسبق ، حتى إن بعضهم كان يقصده للاستفادة منه .

وكان الشعراني شافعياً مرموقاً ، ثقف المذهبَ الشافعي على أئمته في عصره ، كما ثقف عليه أيضاً الكثيرون من تلاميذه ، والمتتبع لمؤلفات الشعراني يجد أنه كثيراً ما يروي عن الشافعي أقوالاً وأخباراً ، تدل على محبته للزهد والتصوف .

([5])ينظر : الأدب في التراث الصوفي ، د/ محمد عبد المنعم خفاجي ، طبعة مكتبة غريب – الفجالة : ص (39–40) .

وللشعراني مزايا أخرى اتسم بها ، فهو مع كونه فقيهاً شافعياً ، كان متقناً لكثير من العلوم ، كما أنه كان عاكفاً على التأليف دون انقطاع ، واستمر في ذلك في دأب لا يمل ولا يكل حتى وصلت مؤلفاته إلى ثلاثمائة كتاب –كما ذكر ذلك صاحب الخطط التوفيقية – .

ويعتبر الشعراني هو أول من وضع دراسةً مقارنة للمذاهب الفقهية ، وذلك من خلال كتابيه " الميزان " و "كشف الغمة " واللذين عمل فيهما على التوفيق بين الأئمة الأربعة .

وقد شغلت شخصية الشعراني اهتمام المستشرقين ، ومنهم نيكلسون الذي وصف إبداع الشعراني وتأثيره من خلال فكره ومؤلفاته في العالم الإسلامي بقوله : " إنه أعظم صوفي عرفه العالم الإسلامي كله ، وإنه منذ فتح المغول العالم الإسلامي ، ركدت الحركة في الإسلام ، واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد ، فلا نجد بوادر انطلاق ، أو إنتاج خصب منتج ، أو أي أثر لتفكير أصيل وضيء ، باستثناء شخصيتين شاذتين ، هما : ابن خلدون المؤرخ ، والشعراني الصوفي ، وكان الشعراني بالذات مفكراً مبدعاً أصيلاً ، أثَّر تأثيراً واسع المدى في العالم الإسلامي ، يشهد به إلى يومنا إلحاح القراء إلحاحاً متواصلاً في طلب مؤلفاته " .

وقد كان الشعراني كذلك عارفاً بأمراض النفوس وعللها وآفاتها ، فعمل على تقديم العلاج لها ، وما كان ذلك غير العمل بما في الكتاب والسنة .

وأما عن أخلاق الشعراني فحدث ولا حرج فقد كان مثالاً عالياً لمن تخلق بأخلاق التصوف وتأدب بآدابه ، كما أنه كان عنواناً كريماً لمن أراد التحلي بالأخلاق المحمدية ، وقد قام الشعراني بوضع كتابه " لطائف المنن والأخلاق " الذي يعتبره بعضُ العلماء أعظمَ كتاب للأخلاق وُضع في هذه الغاية . وهو في هذا الكتاب قد رسم الخطوطَ العريضة للآداب الإسلامية ، كما فرق فيه بين التصوف الصادق الذي يرتكز على الخلق المحمدي وبين أدعياء التصوف .

وإبداع الشعراني مثال يحتذى ، فقد كان مبدعاً في فهمه للتصوف ؛ وذلك من خلال اختصاره الطريق على السالكين ومطالبتهم التحقيق بالعبودية ، ووضع من أجل تلك الغاية كتابه " الأنوار القدسية في آداب العبودية " .

كما تمثلت في شخصية الإمام الشعراني خصائص الزعامة الروحية والشعبية ؛ حيث جاء في عصر شاع فيه الجهل ، وكثر فيه الخرافات والأوهام ، وابتعد الناس بالتصوف عن منابعه الأصيلة (الكتاب والسنة) ، فأعطى الشعراني صورةً صادقةً للتصوف الصحيح ، فقام بجهد جهيد ضد المدعين للتصوف في عصره وأصحاب الشطحات ، فما برح يرد أغاليط هؤلاء المدعين ، ويعمل على تحرير العقول من تلك الشطحات والأساطير التي انتشرت في عصره ، ومن ثم إبراز الصورة الصحيحة للتصوف وتطهيره مما علق به ، واجتهد في دعوته إلى التزام الأخلاق المستمدة من الكتاب والسنة ، وكذلك عمل على محاربة البدع والترهات ، ومواجهة الظلم والوقوف أمام الطغاة .

وقد أسس الشعراني زاويته التي بناها له القاضي عبد القادر الأُزْبَكي ، وكان الطلاب يتكالبون عليها من كل مكان ، فوجدوا فيها ما لم يجدوه في غيرها ، فكانوا يتلقون فيها جميع العلوم بما لا يتاح في أي زاوية أخرى في ذلك العصر ، فكانت كما وصفها المؤرخون من أعظم منارات العلم والثقافة في العالم الإسلامي .

من أجل ذلك أتى هذا البحث ، وهو " الآراء الصوفية للإمام عبد الوهاب الشعراني " مع تحقيق كتابه " القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية " .

ويمكن أن ألخص أسباب اختياري لهذا الموضوع فيما يلي :

1- مكانة الإمام الشعراني العلمية ، فهو من كبار أعلام الصوفية بمفهومها المعتدل ، الذي يعتمد على الكتاب والسنة .

2- أهمية دراسة آراء الإمام الشعراني الصوفية على الخصوص ؛ إذ إنه قد كثرت مصنفاته وتنوع فنونها ، حيث أربت على المائة مؤَلف ، وقد ملأها بكثير من آرائه الصوفية ؛ مما يحتم بيانها ومناقشة ما فيها ؛ وذلك ليتعرفَ الناسُ على عقلية هذا الإمام ؛ وليستفيدوا من سيرته ومؤلفاته , بعضُها لم يَسْبق إليه أحد ؛ مما جعل كثيراً من العلماء والنقاد ينهلون من مؤلفاته . وقد قمت باستقراء كلامه وتقصي آرائه المتناثرة في معظم مؤلفاته سواء أكانت مطبوعة أم مخطوطة .

3- إلقاء الضوء كذلك على آرائه الاعتقادية وعرضها على عقيدة أهل السنة والجماعة على قدر الوسع .

4- وكذلك إبراز كنز مخبوء من كنوز هذا الإمام الكبير وهو كتاب " القواعد الكشفية الموضحة لمعاني الصفات الإلهية " ، ذلك الكتاب الذي قد لفت نظري إلى منحاه في العقيدة الصحيحة لسلفنا الصالح . بالإضافة إلى كونه يتعرض لقضايا كلامية بآراء صوفية ؛ مما يعطي للكتاب أهميته للجمع بين آراء الصوفية في قضايا التوحيد وعلم الكلام .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يأتي مشتملاً على قسمين :

(أ) القسم الأول : وهو قسم الدراسة

(ب) القسم الثاني : وهو قسم التحقيق

أما القسم الدراسي ، فقد جاء مشتملاً على مقدمة وثلاثة أبواب .

أما المقدمة : فقد ذكرت فيها سبب اختيار الموضوع وخطة البحث .

وأما الباب الأول : وجعلته بعنوان : ((العصر والبيئة)) ، فقد جاء مشتملاً على فصلين :

الفصل الأول : بعنوان "عصر الإمام الشعراني " ، وقد صدرته بكلمة موجزة عن العصر الذي نشأ فيه الشعراني ، ثم تحدثت عن بعض مظاهر الحياة في مصر إبان ذلك العصر ، وبينت ما اتسم به من سمات خاصة في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية ، والتي كان لها الأثر في تكيف حياة الشعراني ، وكذلك في اتجاهاته الفكرية .

أما الفصل الثاني : فجاء بعنوان : " التصوف في القرن العاشر من الهجرة "

وفيه بينت حقيقة التصوف وما آل إليه من خلال تأريخ لصورة المجتمع في تلك الفترة ، وأبرزت كيف تحَّول التصوف – بما يحمله من مفهوم حقيقي له – إلى مجموعة هائلة من البدع والخرافات ، وأنه نتيجة لذلك ابتعد الناس باسم هذا التصوف الزائف عن الأخلاق المحمودة ، وتمردوا على الآداب ، وهُدمت الفرائض ، حيث كثر المدعون ، وشاع الجهل والخرافات ، وظهرت البدع التي كثرت في ذلك العصر باسم التصوف ، وهي في ذاتها ليست منه في شيء . ودور الشيخ الشعراني في تجلية المعنى الحقيقي للتصوف ومحاربته للبدع والخرافات وتخليصه

للتصوف مما علق به ، ثم انتقلت إلى الحديث عن زاوية الشعراني ، وبينت أنها أقيمت لتشمل كل شئون الحياة ؛ وذلك بما كانت تقدمه من رسالة صوفية وعلمية وتربوية واجتماعية " .

وأما الباب الثاني فقد جاء تحت عنوان : ((سيرته وحياته)) ، وقد قسمته إلى فصلين :

الفصل الأول : وعنوانه : ((حياة الشعراني الشخصية)) ، وفيه عرفت بالإمام عبد الوهاب الشعراني ، وذلك ببيان : اسمه ، ولقبه ، وكنيته ، ومولده ونشأته ، وأخلاقه وعبادته ، ومذهبه الفقهي والاعتقادي ، ووفاته .

وأما الفصل الثاني : فجاء بعنوان : (((حياة الشعراني العلمية))) ، وقد جاء يشتمل على ستة مباحث ، تحدثت فيها عن نشأته العلمية ، وشيوخه ، وتلاميذه ، ومناصبه ومهامه ، ومكانته العلمية وثناء العلماء عليه ، و تراثه الفكري .

أما الباب الثالث : فقد جاء بعنوان : " الآراء الصوفية عند الإمام عبد الوهاب الشعراني " : وفيه عرضت أهم الآراء الصوفية للإمام الشعراني ، وقد جاء هذا الباب متضمنا لعشرة فصول :

الفصل الأول : (تعريف التصوف والطريق الصوفي عند الإمام الشعراني)

الفصل الثاني : ((المقامات والأحوال))

الفصل الثالث : ((النفس وآدابها))

الفصل الرابع : ((الأخلاق))

الفصل الخامس : ((الشيخ والمريد وقواعد التربية))

الفصل السادس : ((الشريعة والحقيقة))

الفصل السابع : ((الشطح))

الفصل الثامن : ((وحدة الوجود والحلول والاتحاد))

الفصل التاسع : ((السماع والوجد))

الفصل العاشر : ((الولاية والكرامة))

وأما قسم التحقيق : فقد جاء يشتمل على فصلين :

الفصل الأول : ويشمل المباحث الآتية :

المبحث الأول : عنوان المخطوط وقيمته العلمية

المبحث الثاني : سبب تأليف المخطوط

المبحث الثالث : توثيق نسبة المخطوط إلى صاحبه

المبحث الرابع : تاريخ تأليف المخطوط

المبحث الخامس : أماكن وجود النسخ والوصف التفصيلي لها

المبحث السادس : منهج المؤلف في المخطوط

الفصل الثاني : التعريف بالمخطوط ، ويشتمل على المباحث التالية :

المبحث الأول : النسخ الخطية المعتمدة في التحقيق .

المبحث الثاني : صفتها وتاريخ نسخها .

المبحث الثالث : في النسخة الأصل وأسباب اختيارها .

المبحث الرابع : المنهج المتبع في التحقيق وإخراج النص .

وأما الخاتمة : فقد ذكرت فيها أهم نقاط البحث ونتائجه ، ثم أعقبها ثبت بأهم الفهارس العلمية للبحث ، وهي كالآتي :

- **فهرس الآيات القرآنية ، وأرتبه على حسب ترتيبها في القرآن الكريم .**
- **فهرس الأحاديث الشريفة ، وأرتبه على الحروف الهجائية .**
- **فهرس الفرق والمذاهب والطوائف والجماعات ، وأرتبه على الحروف الهجائية .**
- **فهرس الأماكن والبقاع ، وأرتبه على الحروف الهجائية .**
- **فهرس الكتب والمؤلفات ، وأرتبه على الحروف الهجائية .**
- **فهرس الغريب والمصطلحات العلمية ، وأرتبه على الحروف الهجائية .**
- **فهرس الأشعار والأبيات ، وأرتبه على الحروف الهجائية .**
- **فهرس الأعلام المترجم لها ، وأرتبه على الحروف الهجائية.**
- **فهرس المصادر والمراجع ، وأرتبه على الحروف الهجائية .**
- **فهرس موضوعات الكتاب .**

تمهيد :

ولد الإمام الشعراني ونشأ في ظل دولتين متعاقبتين : دولة المماليك الشراكسة ، ودولة العثمانيين ؛ حيث ولد في أواخر القرن التاسع الهجري ، وامتدت حياته إلى الثلث الأخير من القرن العاشر الهجري .

ففي العصر المملوكي عاشت مصر في الفترة من (**648**هـ –**923**هـ /**1250**م –**1517**م) [1] ، وكان لها مكانةٌ ملحوظة بين دول الإسلام خلال تلك الفترة ؛ وذلك لأن حكم مصر وقتئذ كان تحت أمهر الفرسان المدربين على القتال وهم المماليك ، الذين عاشوا بدورهم حياة رخاء ؛ لما وجدوه وتهيأ لهم من أرباح في التجارة والزراعة والصناعة آنذاك .

وإذا كان المماليك وقتئذ بما أثاروه من حروب ، والتي من شأنها أنها توصلهم إلى أعلى مراتب الحكم ، فإنهم لم ينشغلوا بها عن رعاية العلم وأهله . فكثرت المدارس والمساجد ، وقاموا بالإنفاق عليها والعناية بها [2] .

ومن هنا رحل الكثير من العلماء في مختلف الدول الإسلامية إلى مصر فارّين من وجه التتار [3] ، الذين كانوا في هذه الفترة قد استولوا على حاضرة الإسلام ، وأزعجوا المسلمين في شتى البقاع بما ارتكبوه من فظائع وبما أذاعوه من أهوال ، إلا أنَّ ردَّ هؤلاء كان على أيدي المصريين ؛ لأجل ذلك فرَّ العلماء إلى مصر واتجه إليها العالم الإسلامي منذ ردت عن الإسلام غارات التتار وحملات الصليبين ، وكانت مصر في هذا الوقت هي مقر خلافة الإسلام .

([1])انقسمت فترة المماليك لمصر إلى مماليك " بحرية " استمرت من (**650**هـ/**1252**م إلى **784**هـ/**1382**م ، وقد أطلقت عليهم هذه التسمية ؛ لأن سكناتهم كانت في جزيرة الروضة التي يحيط بها بحر النيل . ثم تلتها المماليك " البرجية أو الشراكسة " وهم سكان أبراج القلعة ، والتي انتهت بالفتح العثماني لمصر على يد السلطان سليم الأول في **923**هـ / **1517**م . وقد تولى سلطنة مصر **27** من المماليك البحرية ، و**28** من المماليك الشراكسة . ينظر : موسوعة حكام مصر من الفراعنة إلى اليوم ، د/ ناصف الأنصاري ، ط **5** ، **1414**هـ / **1994**م ، دار الشروق : ص (**93**؛**94**) .

([2])الخطط التوفيقية لعلي باشا مبارك ، ط **1** /**1305**هـ ، الأميرية – بولاق بمصر المحروسة : (**87/1**) .

([3])التتار أو التتر :شعب بدوي يعيش بأطراف بلاد الصين ، و هم سكان براري و مشهورون بالشر و الغدر . وبعض المؤرخين يسميهم المغول ويرى أن التتار فرع من المغول لكن المغول بقيادة جنكيز خان تغلبوا على التتار فتلاشوا في دولة واحدة .ويعد (جنكيز خان) أول ملوك التتار ، وهو الذي وضع للتتار كتاب الياسا أو الياسق ، وجعل الناس يتحاكمون إليه ، وأكثر مافيه مخالف لشرائع الله تعالى . ينظر : تاريخ الخلفاء للسيوطي ، تح / محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط **1** ، **1371**هـ / **1952**م ، مطبعة السعادة – مصر : ص (**403**) وما بعدها ، وينظر : دائرة المعارف الإسلامية ، دار المعرفة ، بيروت – لبنان : (**576/4**) وما بعدها .

ولكن في آخر عهد المماليك بدأ الفساد ينتشر ، وفشت حالة التدهور ، وتسرب الضعف إليهم ، في الوقت الذي قامت فيه الدولة العثمانية [1] . حيث كانت دولة فتية آخذة في النمو ، والمملوكية دولة هرمة متفككة آخذة في الضعف والانهيار ، وقد أنهك اقتصادها تحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح [2] ؛ مما كان له أثر كبير على الإعداد للمعارك وخاصة معركة مرج دابق [3] . وكان العثمانيون [4] حينئذٍ يتطلعون إلى زعامة العالم الإسلامي ، وما كان ذلك لهم إلا من خلال الاستيلاء على مقر الخلافة الإسلامية وهي مصر ، ومن ثم نقل الخلافة الإسلامية إلى ملكهم . وقد كان لهم ما أرادوه ، فتمكن السلطان سليم الأول [5] من قهر المماليك ودخول مصر بعد موقعة الريدانية (923هـ /1517م) ، وأضحت مصر منذ ذلك الوقت تابعة للدولة العثمانية [6] . ونتيجة لهذا تغيرت أحوالها ونظمها .

ولنقف الآن على بعض مظاهر الحياة في مصر إبان هذا العصر (العصر العثماني) ، والذي عاش فيه الإمام عبد الوهاب الشعراني ، ونبين ما اتسمت به هذه الفترة من الحكم العثماني بسمات خاصة في المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية ، والتي كان لها الأثر في تكيّف حياة الشعراني ، وكذلك في اتجاهاته الفكرية .

([1])ينظر في أسباب انهيار الدولة المملوكية ، وقيام الدولة العثمانية : الدولة العثمانية " عوامل النهوض وأسباب السقوط " ، د/ علي محمد الصلابي ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، ط 1 ، 1421هـ / 2001م : ص (190–191) .

([2])دراسات في التاريخ الإسلامي ، د/ جمال الدين الشيال ، نشر وتوزيع دار الثقافة ، بيروت – لبنان : ص (126) وما بعدها

([3])الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة ، د/ أحمد فؤاد متولي ، ط 1 ، 1414هـ / 1995م ، الزهراء للإعلام العربي : ص (254) . وينظر : موسوعة حكام مصر : ص (103) .

([4])العثمانيون : جيل من الأجيال التركية المتشعبة من الجنس المغولي المعتبر من أعظم الأجناس البشرية عدداً ، وأصل منشأه " بلاد منغولية " ، ومنها انتشر غرباً وشمالاً وتشعبت منه في آسيا أمم وقبائل استقلت بنفسها ، وصار بعضها ملكا كبيراً ، مثل : أمة " الهُون " المفتتحة شرقي أوروبا يقودها زعيمها " أتِيلا " ، ومثل دولة الأتراك السلاجقة نسبة إلى " سلجوق " رئيس القبيلة التي نشئوا منها . ومنهم الدولة المعروفة بسلطنة الروم السلجوقية . ينظر : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحالي ، لعمر الإسكندري ، وسليم حسن ، طبعة سنة 1410هـ/1990م ، مكتبة مدبولي – القاهرة : ص (12) ، وينظر : تاريخ الدولة العثمانية ، د/ علي سلطان ، مكتبة طرابلس العلمية العالمية : ص (14–18) .

([5])السلطان سليم الأول : (872 –926هـ = 000 – 1520م) ، وهو سليم بن بايزيد بن محمد بن مراد بن محمد بن بايزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان الغازي ، سلطان الدولة العثمانية . ولد بأماسية في سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، وجلس على تخت السلطنة وعمره ست وأربعون سنة بعد أن خلع والده نفسه عن السلطنة ، وسلّمها إليه ، وكان ملكاً عنيداً سفاكاً للدماء .ويروي ابن إياس أنه لدى خروجه من مصر أخذ معه كميات كبيرة من الكنوز والأموال . كما يروى أنه لدى احتلاله للقاهرة نقل أمهر فنانيها وحرفييها إلى اسطنبول. ينظر : شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، دار الفكر للطباعة والنشر : (10/ 198–201) ، وبدائع الزهور في وقائع الدهور لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي المصري ، مطابع الشعب 1960م : (3/1080) وما بعدها .

([6])تاريخ مصر إلى الفتح العثماني ، تأليف : عمر الإسكندري ، والميجر ا.ج.سفدح ، ط 4 ، 1338هـ / 1927م ، مطبعة المعارف بالفجالة – مصر : ص (244) . وينظر : الشرق الإسلامي " زمن المماليك والعثمانيين " ، د/ صبحي عبد المنعم ، العربي للنشر : ص (126) .

أولاً : الحالة السياسية

تعد الدولة العثمانية إحدى دول الإسلام الكبرى ، التي تركت بصماتها واضحة في تاريخ العالم بعامة والإسلام بخاصة ، وامتدت فتوحاتها إلى ثلاث قارات : آسيا ، وأفريقية ، وأوروبا [1] .

ومما أجمع عليه المؤرخون أن عصر السلطان سليم الأول وكذلك السلطان سليمان الأكبر (القانوني) [2] (974/926هـ– 1520/ 1566م) هو العصر الذي وصلت فيه الدولة العثمانية إلى ذروة مجدها ؛ حيث استطاعت قبيلة آل عثمان الصغيرة في مدة ثلاثة قرون أن تكون لها الهيمنة والسيطرة على البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود والبحر الأحمر [3] .

فبعد أن تم للسلطان سليم فتح مصر ، وضع لإدارتها نظاماً يكفل بقاء خضوعها وعدم استقلال أحد فيها بأمرها ، فأودع مقاليد حكمها ثلاث سلطات [4] :

- **" السلطة الأولى " : الوالي : وهو رأس السلطة السياسية في مصر ، ومقره القلعة ،و أهم أعماله إبلاغ الأوامر التي ترد عليه من السلطان إلى عُمال الحكومة ، ومراقبة تنفيذها . أي أن سلطته يغلب عليها الطابع الرئاسي فقط . ولقد وضعت الدولة العثمانية نظاماً صارماً في تقليد ولاية مصر ، وإن كان هذا هو نظامها في كل ولاياتها ، ولكنها حرصت على تطبيقه أشد ما يكون في مصر ، فقد قصَّرت مدة الباشوات إلى أقل من ثلاث سنوات [5] .**

([1])الشرق الإسلامي " زمن المماليك والعثمانيين " : ص (126) .

([2])سليمان القانوني : (900هـ – 972هـ = 1495م – 1566م) ، وهو سليم بن بايزيد بن محمد بن مراد بن محمد بن بايزيد بن مراد بن أورخان بن عثمان الغازي ، تولى بعد أبيه ، وهو الحاكم التاسع في السلالة العثمانية ، وهو صاحب أطول فترة حكم بين السلاطين العثمانيين ، حيث حكم بين السنوات 1520م و 1566م . وشهدت الإمبراطورية العثمانية في عهده تطوّرًا وازدهارًا في مجالات عديدة . استمر في عملية احتلال الأراضي ووسع حدود الإمبراطورية . وكذلك تطورت في عهده الآداب والفنون. . ينظر : شذرات الذهب : (10/198–201) ، بدائع الزهور: (3/1206) وما بعدها ، وسمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ، لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي المكي ، تح/ عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض . ط 1 ، 1419هـ/1998م ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان : (4/85) وما بعدها .

([3])دائرة المعارف الإسلامية : ص (132) .

([4])ينظر في نظام الحكم في مصر : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحالي : ص (60) .

([5])أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات لأحمد شلبي بن عبد الغني ، تح / د/ عبد الرحيم عبد الرحمن ، طبعة طبعة مكتبة الخانكي – القاهرة ، 1978م : ص (13) .

- **" السلطة الثانية " : جيش الحامية : وقد كونه السلطان سليم من ست فرق (وجاقات) [1] ، ونصب عليهم قائداً يقيم بالقلعة ، وجعل على كل فرقة ستة من الضباط ، وشكَّل من هؤلاء الضباط مجلساً (ديواناً) يساعد الوالي في إدارة شئون البلاد ، وجعل لهذا الديوان الحق في رفض مشروعات الوالي إذا لم ير فيها مصلحة .**

وقد استمرت هذه الوجاقات العسكرية في بداية العصر العثماني قوية ومنتظمة بنظامها العسكري الصارم ، ولكن هذه النظم العسكرية نفسها وكذلك الروح العسكرية بين أفراد الوجاقات أخذت تصاب بالضعف ، وانشغل أفراد الوجاقات بالحصول على الامتيازات المادية ، وإيقاع الكثير من المظالم بالسكان المحليين [2] .

- **" السلطة الثالثة " : المماليك : حيث نصَّب كل واحد منهم على صنجق (مديرية) من الأربع والعشرين مديرية التي تتكون منها البلاد ، وكان هؤلاء الرؤساء من المماليك يُعرفون " بالبيكوات " ، وتسمى مدرياتهم " سناجق " . وكانوا يقومون بحفظ الموازنة بين الباشا والأوجاقات ؛ لأنهم في الأصل أعداء لكلا الفريقين ، وكان من مصلحتهم الانتصار للفريق الأضعف ؛ ليمنعوا القوي من الاستبداد[3] .**

وأصبح أمر المماليك قوياً وفي نماء وأحوالهم في ازدهار بعد قرار السلطان سليمان ، والذي سمح فيه بتكوين فرقتهم ، وازداد المماليك مع الأيام قوة على قوة ، حتى صاروا القوة المسيطرة على الديار المصرية ، وأصبحوا هم الحكام الحقيقين منذ منتصف القرن الثامن عشر [4] .

([1])الأوجاقات : جمع (أوجاق) أو (وجاق) ، والوجاق من التركية ، ومعناه الأول في التركية : الموقد والمدخنة ، ثم أطلق على كل ما تنفخ فيه النار ، فأطلق على البيت من وبر أو مدر ثم على أهله ، ثم على أصناف الجند ، فسميت كل فرقة من الجند بالوجاق . وقد ترك السلطان سليم أربعة أوجاقات في مصر ، ثم جاء من بعده ولده سليمان القانوني فزادها وجاقين ، فصارت ستة وجاقات ، وفي سنة **1574**م صارت سبعة وجاقات .

ينظر : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل ، لأحمد السعيد سليمان ، ط دار المعارف – مصر ، **1978**م : ص (**194–195**) ، وينظر : مصر تحت الحكم العثماني ، د/ عبد الجواد صابر إسماعيل ، مطبعة الحسين الجديدة ، **1979**م : ص (**38–40**) .

([2])أوضح الإشارات ، ص (**4–5**) .

([3])مصر تحت الحكم العثماني : ص (**43**) .

([4])تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحالي : ص (**64–70**) .

وكانوا كمن سبقهم من المماليك لم يمتزجوا بالسكان الأصليين ، بل عاشوا مترفعين في معزل عنهم ؛ فالمماليك في مصر لم يختلطوا بأهلها ، بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم ، فكانت حكومتهم " أوليغرقية " على رأسها الأمير أو السلطان ، في حين أن باقي المماليك كان لهم سلطان نافذ لا ينازعهم فيه أحد [1] . ولما انقضى حكم السلطان سليم الأول سنة (926هـ/1520م) ، وخلفه السلطان سليمان القانوني ، أنشأ مجلسين آخرين يُعرفان بالديوان (الأكبر) و (الأصغر) . ومع بقاء مصر في يد العثمانيين إلا أن الظروف السياسية لم تكن على ما يرام ، فقد ساءت بسبب ما لحق بها من الاضطراب ، حيث بدأت سلطة الولاة على الجنود في الضعف ، وظهرت حالات العصيان من الجنود ، وتسرب الضعف إلى الحامية العثمانية نفسها .

ذلك هو النظام الذي وضعه العثمانيون لإدارة مصر ، ولا غاية لهم منه سوى المحافظة على بقاء البلاد خاضعة للدولة العثمانية ، سواء أكان ذلك في صالحها أم لم يكن . وقد بقيت هذه السياسة ناجحة نحو قرنين من الزمان إلى أن أخذت الدولة في أسباب التقهقر ، فضعف نفوذها في مصر [2] .

وقد كانت سياسة السلاطين العثمانيين هي الإكثار من عزل الباشوات وتعيين غيرهم وعدم السماح باستقرار أحدهم في الحكم مدة طويلة ؛ وذلك خوفاً من أن يطمع أحدهم في الحكم أو الانفراد به والسيطرة على مصر ، مما مكَّن رؤساء الجند ابتداء من القرن السابع عشر الميلادي من السيطرة على الحياة السياسية في مصر ، وسلب من الباشا كل سلطته بحيث لم تعد له القدرة على تصريف أمور البلاد [3] .

ومما هو جدير بالذكر هنا أن مصر في معظم ذلك العصر كانت مشهداً للفتن والمشاحنات ، إما بين سلائل المماليك أنفسهم ، وإما بينهم وبين الولاة العثمانيين ، وإما بين هؤلاء وجنود الحامية العثمانية [4] .

([1])مصر العثمانية لجرجي زيدان ، تح/ د/ محمد حرب ، دار الهلال ، ط 1 / 1944 ، القاهرة : ص (40) . وينظر : تاريخ دولة المماليك في مصر ، للسير وليم موير ، ترجمة / محمود عابدين ، وسليم حسن ، مكتبة مدبولي – القاهرة : ص (202–203) وما بعدهما .

([2])تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحالي : ص (61) .

([3])دراسات في تاريخ مصر الحديث ، د/ عمر عبد العزيز ، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ، ط / 1983م : ص (168) ، مع تصرف في العبارة . .

([4])تاريخ مصر من الفتح العثماني : ص (59) .

ثانياً : الحالة الاجتماعية

لقد أدى اضطراب الحالة السياسية إلى تدهور الأحوال الاجتماعية في مصر إبان العصر العثماني ، فكانت الهيئة الاجتماعية في ذلك العصر لم تختلف عنه في العصور السابقة عليه ؛ حيث كان المجتمع المصري مجتمعاً طبقياً ، تألف من عدة طبقات ، وبقيت الكثير من العادات الاجتماعية فيه ، وكان الظلم الاجتماعي سمة غالبة في المجتمع . وقد تمخض عن الحكم العثماني التركيب الطبقي الآتي :

1. طبقة التجار ، وكانت تسيطر على الثروة ، وكان إليهم زمام المنافع الدنيوية . وهي الطبقة المعروفة بالترف وسوء الأدب في القرن العاشر ، وقد ذكر الشعراني أنهم كانوا يحضرون المساجد قبل الصلوات في مثل الجامع الأزهر وغيره ، فيجلسون محدِّثين في لغو وغفلة بل وغيبة [1] . وكذلك يُنَبِّه الشعراني إلى مدى إخلالهم ببعض أمور الدين ، فيرسم لنا ما تميز به الكثير منهم من أنهم كانوا يبيعون في الموسم القماش فلا يتهنأ أحدهم بطواف ، بل ولا بصلاة جماعة ، فيصير في النهار غافلاً وبالليل ونائماً [2] ، ويبين أيضاً أن التجار استرقتهم شهوات النساء ، فلا يقدر أحدهم على مخالفة زوجته أبداً [3] . وقد انقسمت طبقة التجار إلى قسمين : تجار التجزئة ويعتبرون من صغار التجار . وتجار الجملة ويمثلون كبار التجار الذين تمتعوا بالثراء والمكانة العالية في المجتمع المصري ، وقد سكن بعض هؤلاء القصور الفاخرة في أحياء القاهرة [4] .
2. وطبقة الحكام ، وكانت مستبدة ، بدليل أن الشعراني نهى عن مقاومتهم مرات كثيرة . وتلك الطبقة قليلة العدد ، وكانت متميزة منفصلة عن سائر الطبقات سواء أكان ذلك في الظواهر السلوكية أو في احتلالها مراكز القيادة في الإدارة والجيش ، كما تميزت بمستوى اقتصادي مرتفع ، وقد انعكس ذلك على مستواهم الاجتماعي ، ودلّ على ذلك ما كانوا يعيشون فيه من قصور ، وما عندهم من حواشي ، وكان أفراد هذه الطبقة يُنعتون دائماً بأعيان البلاد وأكابرها ، وأمرائها ، وأصحاب الحل والربط ، كما كان يمارس أفراد هذه الطبقة العمل التجاري [5] .

([1])لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية ، للشعراني ، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، ط 1 ، 1419هـ / 1998م : ص (200) .

([2])المصدر السابق : ص (192) .

([3])المصدر السابق : ص (519) .

([4])المجتمع المصري في العصر العثماني ، د/ عبد اللطيف ، دار الكتاب الجامعي – القاهرة ، 1942م : ص (30) .

([5])أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات : ص (13–14) .